03- ماذا نُدَرِّسْ؟

04- كيف نُدَرِّس؟

هذه بعض التساؤلات التي يمكن الإجابة عنها انطلاقا من معطيات عملية وواقعية تهم تدريس اللسانيات في شعب اللغة العربية بكليات الآداب بالجامعة المغربية. ونتصور أن هذا الوضع لا يختلف عن باقي المعاهد والمؤسسات الجامعية في العالم العربي كثير الاختلاف. نعتبر عملية تدريس اللسانيات في مستواها الجامعي حالة من حالالت التواصل بمعناه العام التي تعكس جملة من أركان التواصل ودعائمه نقتصر منها على ثلاثة أركان، هي:

01- الباث (الأستاذ).

02- المتلقي (الطالب).

03- الرسالة (اللسانيات أو علم اللغة أو المعرفة اللغوية إجمالا).

الباث: بالنسبة للباث أو المرسل، وهو الاستاذ مصدر المعرفة اللسانية يطرح علينا اسئلة من قبيل:

01- ما مستوى تكوينه اللساني والمعرفي والعلمي؟

02- ما تجربته الجامعية؟والبث مدرس اللسانيات أستاذ جامعي يفترض فيه أن يكون متخصصا في اللسانيات بتلقيه دروسا فيها في تعليمه الجامعي الأولي والمتقدم؛ أي في مستوى الدراسات العليا عبى أيد أساتذة متخصصين عرب أو أجانب أو هما معا، وقام فيها بإنجاز دراسات وبحوث أكاديمية. وقد يكون مدرس اللسانيات منتخصصا في علوم اللغة العربية(نحوها ومعجمها وبلاغتها وفقهها)، وليس له إلمام دقيق باللسانيات، وإنما قرأ عنها بلغة أجنبية أو ما ترجم منها إلى اللغة العربية في إطار ثقافته اللغوية العامة، وقد وجد هذا المدرس نفسه لأسباب مهنية مضطرا لإكمال حصته الاسبوعية (ساعات التدريس)، فكُلِّف بتدريس اللسانيات على الرغم من أنه ليس من ذوي الاختصاص فيها أحيانا كثيرة.

بذل هؤلاء الاساتذة المدرسون، متخصصون في اللسانيات وغير متخصصين فيها، مجهودا جبارا كان له تأثير إيجابي كبير، لا يمكن إنكاره على أجيال عديدة من الطلبة، بملء الفراغ الذي كانت تعاني منه كلياتنا في بداية الثمانينات من القرن العشرين، وهي الفترة التي أصبحت فيها اللسانيات تخصصا قائما بذاته (1983-1984) كما أصبحت تدرس في عدة سنوات من الإجازة في الأدب العربي[1].

كان هذا المدرّس المفعم بالحماسة الفكرية يلقي الدروس في علوم اللغة أو اللسانيات دون أي تخطيط نظري مسبق. لقد كان الهدف الأول هو توصيل هذه المعرفة للمتلقي نظرا إلى المكانة التي كانت تحظى بها اللسانيات وفروعها في الثقافة العربية عامة[2]، وفي الثقافة المغربية بصفة خاصة بوصفها مدخلا للحداثة الفكرية واداة إجرائية في التحليل الأدبي.

---

[1] اللسانيات العربية أسئلة المنهج، مصطفى غلفان، دار ورد الأردنية، ط1، عمان-الأردن، 2013، ص252-253.

[2] بالنسبة لهذا الموضوع ينظر كتاب توفيق الزبدي: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، تونس، وكذلك: اللسانيات العربية الحديثة، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاءن 1998، واللسانيات في الثقافة العربية الحديثة (حفريات النشأة والتكوين)، مكتبة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2006.

المحاضرة رقم 02 التعريف باللسانيات وموضوعها ومنهجها

لاعتبارات منهجية وموضوعية، يتطلب التعامل مع أي مادة لسانية نروم تدريسها في الجامعة القيام بـ: تحديد وتوضيح طبيعة التحليل اللساني، وبسط لمنطلقات النظرية والمنهجية الجوهرية في اللسانيات. وسنعرض فيما يلي للتعريف باللسانيات في تقديم عام.

إنّ التغيّر في الاتجاه الذي حدث في بداية القرن العشرين هو تحوّل من اللسانيات التاريخية التي تهدف إلى معرفة طبيعة تاريخ اللغات، والكشف عن أواصر العلاقات الموجودة بينها، وإعادة بناء اللغات الأولى المنقرضة إلى ما أصبح يعرف اليوم باللسانيات الآنية، التي تعنى بوصف اللغات وتحليلها كما هي موجودة في نقطة معينة من الزمن وبالخصوص في الزمن الحاضر. وكان أوّل من نظّر لهذا المنهج الجديد السوسيري فرديناند دي سوسير.

1-فرديناند دي سوسير حياته ومؤلفاته: ينحدر الباحث فردينان دي سوسور الملقب بأب اللسانيات من عائلة فرنسية عريقة من الطبقة الأرستقراطية التي كان فيها البحث العلمي عادة متوارثة. ولد فردناند دوسوسور عام 1857 بجنيف نظرا لهجرة عائلته للوزان بسويسرا مع ظهور الحرب الدّينية الفرنسية نهاية القرن 16، وشاءت الأقدار أن يولد بعد عام واحد من مولد سيجموند فرويد مؤسس علم النفس الحديث وقبل عام من ولادة دوركايم مؤسس علم الاجتماع، فكان لهذا الثلاثي شأن كبير في توجيه مسار العلوم إفنسانية، وإحداث ثورة كوبرنيكية على المفاهيم القديمة والمناهج الكلاسيكية[1].

ولقد تخصص دي سوسير في سنواته الأولى عام 1875 في دراسة الفيزياء و الكيمياء مع أنه كان يشعر في الوقت ذاته إلى مليه لدراسة اللسانيات ، و في عام 1876 قام باختبارٍ أوّلِي حول العادات اللسانية للقرن 18 و علاقتها بأصل اللغة آنذاك ، و في نفس السنة انتقل من جنيف إلى برلين حيث أقام هناك لمدّة أربعة سنوات إلى غاية 1878 ولقد سمح له ذلك السفر باقتحام عالم اللسانيات ، و في عام 1880 تَمكن دي سوسير من إعطاء مكانة لاسمه في عالم اللسانيات في سن لا يتجاوز 21 سنة بعد ما أنجز أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ : le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes، النظام البدائي لحروف العلّة في اللغات الهندو أوروبية ، و في نفس العام عاد دي سوسير إلى فرنسا حيث تابع دروس قواعد اللغة المقارنة للباحث Michel Bréal بمعهد الدراسات العليا و التي تُعنى بدراسة تاريخ و تطور اللغات ليتحول بعد ذلك إلى أستاذٍ محاضرٍ عام 1881، ولقد تمكن دي سوسور في تلك المرحلة من تحقيق نجاحات باهرة جراء المقالات التي كان يعمل على نشرها بالإضافة إلى النقاط البارزة في كل المذكرات المتعلقة بمجتمع اللسانيات التي كان يشرف عليها ، ليتحول بعد ذلك من أستاذ محاضر إلى نائب كاتب secrétaire adjoint عام 1882.

---

[1] اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة ط5، 2015، ص118.

وفي عام 1891 عاد الباحث فردينان إلى مسقط رأسه حيث تولى تدريس le sanskrit et la grammaire comparée (السنسكريتية و القواعد اللغوية المقارنة) بجامعة جنيف، و في عام 1907 طرح الباحث فردينان دي سوسير السؤال الرئيس لأسس الألسنيات العامة المتضمنة في كل أعماله السابقة لكنه لم يجب على هذا الأخير حيث أنّه لم يعد يقدّم أية تأملات حول الموضوع.

فبعد كل الإنجازات التي قام بها دي سوسير في حياته عرف في نهاية مطافه نوعا من الإحباط، حيث أنّه لم يعد قادرا على كتابة أي شيء في مجال اللسانيات و منذ ذلك الحين توقف الإنتاج المعرفي القيّم لأب السيميولوجيا فردناند دي سوسير إلى أن وافته المنية سنة 1913 عن عمر يناهز 56 سنة.

وبعد ثلاثة سنوات من وفاته عمل طلبته على تدوين كل المعارف التي تلقوها من أستاذهم فردنان دي سوسور في كتاب تمّ إصداره عام 1916 حمل عنوان دروس في الألسنية العامة كما ذكرنا سالفا، ولقد عمل على ذلك كل من بالي وسيشهاي[1].

أهم مؤلفاته[2] **:** لا تزال الإصدارات المتعلقة بالباحث فردينانند دي سوسير دائما في خدمة البحث العلمي ومن أبرزها:

- أطروحة الدكتوراه الصادرة تحت عنوان النظام البدائي لحروف العلّة في اللغات الهندو أوروبية.

بالإضافة إلى العديد من المقالات المنشورة في مجلة الإصدارات العلمية .

- أما عن باقي الإصدارات التّي تمّ إصدارها بعدّ وفاة فرديناند دي سوسير، فيتصدرها كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" الذيّ نُشرَ على يد طلبته عام 1916 بالإضافة إلى عدة كتب أخرى تولى نشرها باحثون اهتموا بنفس الميدان و اعتمدوا ما قدمّه دي سوسير كمرجع أساسي لتطوير المعرفة في نفس المجال.

مفهوم البنيوية عند دي سوسير: يرتبطُ اسم Saussure بالبنيويّة منهجا ارتباطَ الفرعِ بالأصلِ، إذ إنّهُ الأب الحقيقيّ للحركة البنيويّة .

والبنيويّة اللغويّة في عمومها هي: "منهجٌ عامٌ يأخذُ اللغة على أنها بناء أو هيكل، أشبهُ شيءٍ بالهيكلِ الهندسيّ المُتشابكة وحداتهُ ذات الاستقلال الداخليّ، والتيّ تتحد قيمتها بالعلاقاتِ الداخليّة بينها، و ذلك بمعزلٍ عن أيةِ عناصر خارجيّة، كصاحب النص المكتوب أو المنطوق، والسياق الخارجيّ أو غير اللغويّ"، ما يعني أنَّ

---

[1] ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، ص118-119.
[2] نفسه، ص119.

المدرسة البنيويّة تؤسس إلى أنّ النظام اللغويّ نظامٌ مسيطرٌ على عناصرهِ، كما تحرصُ على إضفاءِ الطابعِ العضويّ لمختلفِ التغيراتِ و المستجداتِ التي تخضعُ لها اللغة[1].

ولم يكن "سوسير" أثناء إلقائهِ لمحاضراتهِ في العلوم اللغويّة ليظنَ بأنّه كان يؤسسُ لإرساءِ قواعد منهجٍ معرفيّ ستتجاوز آثارهُ الدائرة المعرفيّة اللغويّة لتمتدَ إلى مختلفِ العلوم الإنسانيّة و الاجتماعيّة الأخرى، و على الرغمِ من أنَّ دي سوسير ذاتهُ لم يأتِ على استخدام مُصطلح "بنيّة"، مقتصرا على استخدام مصطلحي "النسق والنظام" إلاّ أنّهُ كان الأحقَ بأبوّةِ المنهجِ البنيويّ في دراسةِ الظاهرة اللغويّة.

وكما وردَ في مُقدمة المراجعِ في النسخة العربيّة لكتاب علم اللغة العام المُعربة من قبل د.يوئيل يوسف عزيز إنَّ النظر البنيويّ حسب دي سوسير هو النّظرُ في اللغة الحيّة نظرا آنيا شموليا بوصفها منظومة تتضمن سلسلة من العناصر، هذهِ الأخيرة يؤثرُ بعضها في البعضِ الآخر من خلالِ عملها و تفاعلها الذّي يقومُ على تفاعل عنصرٍ مع الآخر[2]، و هو ما يوضحُه تعريفهُ للنسق على أنّهُ عبارة "عن كلٍّ منظمٍ مُتكونٍ من عناصر متضامنة لا يُمكنُ تعريفها إلاّ بالنسبة لبعضها البعض حسبَ المكانةِ التي تشتغلها في المجموعة "[3].

عموما يُمكننا أن نستنتج أنَّ اللغة عند دي سوسور هي كيان مستقل، من الصعوبة تجزئتهُ و عزلُ عناصرهِ ومن ثم سبرِ أغوار هذه العناصر و البحث عنها في عزلتها ، فكل عنصر لغوي يخضعُ لتقلباتٍ و تحولاتٍ تاريخيّة من الخطأ النظر إليه أو التعاملُ معه على أنّه عنصرٌ متفردٌ و ليس منتميا وهذا ما يوسمهُ الباحثون بشرطيّة اللغة عند دي سوسير.

أسس اللسانيات عند دي سوسير: مما لا شك فيه أنّ كتاب دي سوسير "محاضرات في اللسانيات العامة" قد بلغ قيمة علمية كبيرة لا تضاهيها أية قيمة أخرى في اللسانيات الحديثة قبل هذا العصر. فقد ساعد على تحديد مجرى لسانيات القرن العشرين والابتعاد بها كليا عن مناهج اللسانيات التاريخية.

ومن الأمور التي اشتهر بها "دي سوسير" استخدامه لظاهرة ملفتة للانتباه تمثّلت فيما يسمى بالثنائيات. ومن الممكن جدّا أن يكون هذا الرّجل قد تأثّر بالنظرية الكلاسيكية القائلة بأنّ ثمة وجهين مختلفين لكل شيء في هذا الكون كلاهما يكمل الآخر. وقد ظهرت هذه الفكرة من قبل عند أرسطو وديكارت، واستعملها دي سوسير من جديد في شكل دعائم مزدوجة أو تفرعات ثنائية. وبالإضافة إلى هذا فقد أكّد على أهمية دراسة الكلام عوض النصوص المكتوبة، وعلى تحليل النظام الباطني للغة بدلا من المقارنات المعجمية والنحوية، وعلى وضع

---

(1) التفكير اللغوي بين القديم والجديد، كمال بشر، مكتبة الشباب، دط، دت، ص102.

(2) علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، تعريب يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربيّة، بغداد، ط1، 1985، ص3.

(3) ينظر: سوسير أو أصول البنيوية، جورج مونان، تر: جواد بنيس، مؤسسة الرحاب، لبنان، دط، 2015، ص77.

اللغة في وسطها الاجتماعي بدلا من النظر إليها جملة من السمات الفيزيائية. وبشكل عام فقد تطرّق دي سوسير إلى عدّة مسائل نظرية لا يمكن للدارس المبتدئ الاستغناء عنها أبدا[1].

***كتاب محاضرات في اللسانيات العامة:** لقد بات معوفا أنّ دي سوسير لم يشتهر بما كتبه من بحوث مقارنة في رسالتين عن احرف العلة في اللغات الهندوأوروبية، وعن حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية، إنّما اشتهر بكتاب لم يكتبه هو: محاضرات في اللسانيا العامة cour de linguistique generale، فقد قام اثنان من تلاميذه في جنيف بإعداد هذا الكتاب معتمدين في ذلك على أمليات سجلها زملاؤهم. والتلميذان هما "بالي" و"سيشهاي"، وصدر عام 1916م، أي بعد وفاة المؤلف بثلاث سنوات. ومع أنّ الظروف التي ظهر فيها الكتاب لم تكن ملائمة بسبب الحرب العالمية الأولى، فإنّ الكتاب لقي الكثير من الاهتمام. لكنّ ما في الكتاب لم يقدّر حقّ قدره إلاّ بعد عام 1963، ولاسيما عام 1967 الذي شهد انتشارا واسعا لأفكار دي سوسير، فقد تجاوز الكثير من الدارسين تلك التحفظات التي أثيرت حول صحّة ما تقدِّمه الأمليات من فكر المعلّم بعد جدال ونقاش طويلين[2].

يقع الكتاب في مقدمة وخمسة أجزاء، وهو في حوالي مئتين وثمانين صفحة من القطع الصغير، ترجم الكتاب إلى العربية عدّة مرّات منها ترجمة "يوسف غازي ومجيد النصر" عام 1984، وترجمه "صالح القرمادي ومحمد عجينة ومحمد الشاوش عام 1980، وصدر في تونس بعنوان "دروس في الألسنية العامة" وترجمه "يوئيل يوسف عزيز" عام 1985، وصدر ببغداد بعنوان "علم اللغة العام" وترجمه عن الإنجليزية "أحمد نعيم الكراعين"، ونشرته دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية من دون تاريخ.

ثنائيات دي سوسير:

1/ **اللسان/اللغة/الكلام:** يرى "دي سوسير" أنّ الظاهرة اللغوية تتمثّل في ثلاث مصطلحات أساسية: اللسان LE LANGAGE، واللغة LA LANGUE والكلام LA PAROLE ، وقد اكتسبت هذه المصطلحات صبغة عالمية في اللسانيات الحديثة، واستعملت كما هي دون ترجمة خاصة في اللغات الأوروبية، ويدل اللسان على النظام العام للغة، ويضمّ كل ما يتعلّق بكلام البشر، وهو بكل بساطة لسان أي قوم من الأقوام، ويتكون من ظاهرتين مختلفتين: اللغة والكلام[3].

وفي هذا الصدد يقول دي سوسير: "لا ينبغي الخلط بين اللغة واللسان، فما اللغة إلّا جزء محدد منه، بل عنصر اساسي، وهي في الوقت نفسه نتاج اجتماعي لملكة اللسان، ومجموعة من التواضعات الضرورية التي

---

(1) اللسانيات النشأة والتطوّر، ص121.

(2) مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان،ط$_2$، 1419-1999،ص17.

(3) اللسانيات النشأة والتطور، ص124.

تبناها الجسم الاجتماعي لتمكين الأفراد من ممارسة هذه الملكة. وإذا نظرنا إلى اللسان ككل، فإننا نجده متعدد الجوانب ومتغاير الخواص، ولأنّه يمتد في غير اتساق إلى أصعدة مختلفة في آن واحد منها الفيزياء والفيزيولوجية والسيكولوجية، فغنّه ينتمي في الوقت نفسه إلى الفرد وإلى المجتمع، ولأنّه ليس بإمكاننا اكتشاف وحدته، فلا نستطيع إذن تصنيفه في أيّة فئة من الوقائع البشريّة"[1].

واللغة في نظر دي سوسير، واقعة اجتماعية، وخصوصياتها ليست مجردة بل متواجدة بالفعل في عقول الناس. وبعبارة أخرى، فهي مجموع كلي متكامل كامن ليس في عقل واحد، بل في عقول جميع الأفراد الناطقين بلسان معين. ونلاحظه يشبه اللغة بالقاموس الذي يمثل في الأصل الذاكرة الجماعية لما يحتويه من علامات لا يطيق الفرد الواحد أن يختزنها في دماغه وذلك بقوله: "إنّ اللغة توجد على شكل مجموعة من البصمات المستودعة في دماغ كل عضو من أعضاء الجماعة على شكل معجم تقريبا، حيث تكون النسخ المتماثلة موزعة بين جميع الأفراد وهي لا تتأثّر بإرادة المودعين، ويمكن صياغة نمط وجودها بهذا الشكل 1+1+1+1...=1 (نموذج جمعي)[2].

إنّ اللغة كنز اجتماعي من الوحدات والقوانين يمثل نظاما عاما لا يمكن للفرد أن يحيد عنه. فإذا طلبنا من أيذ إنسان متعلم أن يصرّف الفعل "كتب" مع جميع الضمائر في الماضي أو المضارع، فإنّه يحاول جاهدا أن يتّبع قواعد التصريف المتعارف عليها دون إلحاق أي تغيير بالنظام العام. لذا فإنّ موضوع اللسانيات هو اللغة بكل جوانبها النحوية والصوتية والمعجمية المترسمة في عقول جميع الناس عن لغتهم وليس ما يتفوهون به. ومهما يكن من أمر فإن التأثر الشديد بالنظرية الاجتماعية لدوركايم قد أدّى بدي سوسير إلى المبالغة في الطابع الفو-شخصي أو الاجتماعي للغة. خاصة إذا ما علمنا انّه يعترف بأنّ التغيرات التي تطرأ على اللغة تنطلق من التغيرات التي يحدثها الفراد في الكلام[3].

أما الكلام، فإنّه فعل كلامي ملموسن ونشاط شخصي مراقب، يمكن ملاحظته من خلال كلام الأفراد أو كتاباتهم، فهو مطابق لمفهوم الأداء الذي وضعه تشومسكي، وقد عرّفه دي سوسير قائلا: "إنّه مجموع ما يقوله الأفراد ويشمل:

أ-الأنساق الفردية الخاضعة لإرادة المتكلمين.

---

(1) محاضرات في اللسانيات العامة، دي سوسير، تر: يوسف غازي، مطبعة المؤسسة الجزائرية ،الجزائر، 1986، ص21.

(2) محاضرات في اللسانيات العامة، دي سوسير، تر: يوسف غازي، ص21.

(3) اللسانيات النشأة والتطوّر، ص124.